

وظيفة الصوت اللغوي في تحديد دلالة اللفظ

الدكتور: عياش فرحات

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باتنة

ملخص

مضمون هذه الدراسة يتناول وظيفة الصوت اللغوي في تحديد دلالة اللفظ، حيث لا نستطيع أن نعزل الصوت عن معناه الملازم له، والصوت المسموع سواء كان مفهوماً أو غير مفهوم، يكون مصحوباً بمعانٍ نستوحيها من المتكلم، بل أننا نضف على ما نسمع معاني عديدة متعمقة في داخلنا. ولو افترضنا أننا قادرون على عزل الصوت عن معناه، فإنه يتحول إلى صوت منغم يوحي بمعنى في المعاني، وهذه الدراسة تدور حول هذه الفكرة، وعن دور الصوت في فهمنا لدلالة الألفاظ ومعرفتها.

من المسلم به أننا لا نستطيع أن نعزل الصوت عن معناه الملازم له، ولو افترضنا أننا قادرون على عزله، فإنه يتحول إلى صوت منغم يوحي بمعنى من المعاني. والصوت المسموع سواء كان مفهوما أم غير مفهوم. يكون مصحوبا بمعان أخرى نستوحيها من المتكلم، بل أننا نضفي على ما نسمع معاني عديدة متعمقة في داخلنا.

فالأصوات والمعاني شيان متلازمان، أي أن الأصوات لا بد أن توحى بمعنى، والعكس ليس صحيحا لأن المعاني قد تستوحي من نواح كثيرة كالبصر، والشم، واللمس وغير ذلك:

ولقد مرت العلاقة بين الأصوات و معانيها باعتقاد عام من جانب الباحثين اللغويين وغيرهم هو أن الأصوات أو الألفاظ يجب أن تكون مشاكلة لمعانيها، وهو ما يعرف أو ما يقابل عند الأوربيين *onomatopoeia* ويترجمها بعض الباحثين بـ (تقليد أصوات الطبيعة) وذلك كما فعل الدكتور محمود السعران (1). ويترجمها الدكتور حسن ظاظا بـ ((الألفاظ ذات الجرس المعبر)) (2).

وقد تنبه اللغويون العرب إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين، ولقد ذكر السيوطي أن عباد بن سليمان الصميري قد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية.

أما ابن جني فإنه قد أفرد لهذه الظاهرة صفحات كثيرة ليدلل على أن هذه الظاهرة تستوجب الاهتمام، واستهل حديثه في هذا الباب برأي للخليل وآخر لسيبويه، فيورد أن الخليل قال: ((.كانهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: صر، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر)). وينقل عن سيبويه ما يؤكد هذه الظاهرة عندما قال: إن المصادر التي جاءت على (الفعال) قد أتت وأفادت الاضطراب والحركة، نحو النقران والغليان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال (3). وقد أكد ابن جني نظريته إلى هذه الظاهرة بعدة أشياء هي (4):

- وبالإضافة إلى هذا قد تعددت ملاحظات ابن جني على وظيفة الصوت في تحديد دلالاته كما جاء في باب عنوانه ((في الاشتقاق الأكبر)) وهو في مقابل الاشتقاق الأصغر الذي يعرفه اللغويون ويقول ابن جني: ((الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير، فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم، أن تأخذ أصلاً من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، ذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ معنى السلامة في تصرفه نحو: سلم، ويسلم، وسالم وسلمان، وسلمى، والسلامة. والسليم: اللديع أطلق عليه تفاؤلاً بالسلامة، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته، وبقية الأصول غيره كتركيب (ض ر ب) و (ج ل س) و(ز ب د) على ما في أيدي الناس، فهذا هو الاشتقاق الأصغر. وأما الاشتقاق الأكبر: فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحد، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء منها رد بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد (5). نحو : (ك ل م) (ك م ل) (م ك ل) (ل ك م) (ل م ك) (م ل ك)، وكذلك: (ق ول) (ق ل و) (و ق ل) (ل و ق) (و ل ق) (ل ق و). وهذا أعوص مذهبا،

وأحزن مضطربا، وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة و الشدة، وتقاليب القول الستة على الإسراع و الخفة(6).

وابن جني نفسه يتحفظ قليلا في رأيه هذا ولا يدعي اطراد ما يسميه الاشتقاق الأكبر ويقول في ذلك ((..واعلم أنا لا ندعى أن هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندعى للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة)) (7).

لكن ابن جني يعود إلى وظيفة الأصوات في تحديد معانيها ودلالاتها عندما يتحدث عن الاشتقاق الأكبر وذلك فيما أسماه (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) ويرى أن اقتراب الأصليين الثلاثين يؤدي إلى الاشتراك في الدلالة مثل ضياط وضيطار، ولوقة وألوقه، ورخو ورخود، وكذلك اقتراب الأصليين ثلاثيا أحدهما ورباعيا صاحبه، أوربا عيا أحدهما، وخماسيا صاحبه مثل دَمَث ودمَثَر، وسبَط وسبَطَر، ومثل درب ودربيس(8). وهذا في نظر ابن جني يؤدي إلى الاشتراك في الدلالة، كما يرى ابن جني أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الكلمات التي اشتركت في الأصوات بل يرى أنها تظهر في الأصوات التي تتقارب مخرجها أو خصائصها الأخرى مثل:

(الغدر) و (والختل) ومثل (السحيل) و(الصهيل) ومثل (جلف) و(جرم)، ومثل (عَصْر) و(أزل)(9).

أما عن العلاقة بين الأصوات ومعانيها عند المحدثين فإن أهمها هو ما كتبه جيسبرسن؛

وترجع أهمية كتابات جيسبرسن Otto Jespersen في هذه الناحية إلى وجهة نظره التي تمثل موقفا وسطا بين أنصار المناسبة الصوتية ومعارضيهما فلقد دافع عن (همبولد) Humboldt

- توفي سنة 1835م - أحد أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها، وذلك عندما عارضه (مدفيج) Madvig المتوفي سنة 1843م، ويرى جيسبرسن أن (مدفيج) قد تجني على (همبولد) لأنه لم يدَّع أن مثل هذه الألفاظ في اللغات تطرد في كل كلمات اللغة، وجيسبرسن يميل لأصحاب المناسبة بين الألفاظ في اللغات، كما يرى أن بعض الكلمات التي تتمثل فيها هذه الظاهرة تزول منها مع الزمن.

بينما تكتسب كلمات أخرى هذه السمة، كما يرى أن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إحياء للدلالات، وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدراً أكبر من الرمزية ويأمل في أن يأتي المستقبل باليوم الذي تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالاتها أكثر وضوحاً (10).

ويسوق لنا جسبرسن أمثلة لتلك النواحي التي نلاحظ فيها وثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات منها:

(أ) أوضح تلك النواحي المسماة **Onomatopoeia** وهي الألفاظ التي تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة. وهذه ظاهرة واضحة في كل اللغات، وهي تشبه ما عندنا في العربية من

أمثال الحفيف، والخرير، والزفير والصهيل والهزيل والعواء والزئير، إلى غير ذلك من كلمات استمدت ألفاظها من الأصوات الكونية وأصوات الحيوانات.

(ب) يؤكد لنا ((جسبرسن)) أن الألفاظ التي تعبر عن الصوت الطبيعي قد تنتقل، وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت، وذلك كأن يصبح الزئير اسماً من أسماء الأسد. ففي أوربا طائر يظهر في الربيع وبصيح ((كوكو)) وكان من الممكن أن تقنع هذه اللفظة بالتعبير عن صوت هذا الطائر، ولكنها تستعمل الآن للطائر نفسه. كذلك قد تسمى حركات الإنسان بما ينبعث منها من أصوات، فصوت المشي قد يطلق على المشي نفسه.

(ج) كذلك قد ترتبط الألفاظ بالدلالات في بعض الحالات النفسية كال كلمات التي تعبر عن الغضب أو النفور والكره، كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها، فقد لوحظ أن (الكسرة) وما يتفرع عنها من ((ياء المدّ)) ترمز في كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة. ففي العربية مثلاً نجد أن ((الياء)) هي علامة التصغير، وأن الكسرة علامة التأنيث.

(د) كذلك يشير ((جسبرسن)) إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فحين نقارن بين ((صر الجندب)) و((صرصر الجندب)) نرى أن صيغة ((صرصر)) تفيد تكرير

الصوت، وحين نقارن بين ((كسر)) و((كسر)) نرى أن التضعيف في الصيغة الثانية قد زاد في دلالتها(11).

لكننا نلاحظ أن الدقة العلمية التي تمتاز بها التجارب الصوتية قد لا تساعدنا في دراسة الصلة بين الأصوات ودلالاتها، لأن الآلات المستخدمة تدرس الأصوات فقط، أو تظهر مؤشرات تختص بالأصوات دون معانيها ومثال ذلك أننا لو استخدمنا في دراستنا جهازاً علمياً مثل الأوسيلوجراف **Oscillographe** أو راسم الذبذبات فإننا سنحصل على خصائص صوتية مثل حدة الصوت وارتفاعه والزمن، وغير ذلك من الخصائص التي يمكن أن توصف بها أية سلسلة كلامية أخرى، وهذا يعني أن الدلالات أو المعاني تطرح جانباً في المعامل الصوتية، عند دراسة أو اختبار السلاسل الكلامية المختلفة في الشعر والنثر، وقد تدخل عوامل أخرى في تلك الاختبارات فتغير الأثر أو النتيجة التي يحزجها الأوسيلوجراف مثل طريقة منشء الشعر مثلاً، أو الأداء الذي يقوم به المتكلم عند الإلقاء، ويمكن أن تتداخل عوامل أخرى كالضوضاء وهذه العوامل وغيرها تؤثر في الذبذبات التي يتركها الأوسيلوجراف(12).

وربما دفعت هذه النتائج بعض الباحثين إلى أن يتصوروا أنهم قادرون على إحياء الإيقاع أو الصوت بمعزل عن معناه، وذلك كما زعم جورج ستيوارت **G.R.Stewart** عندما قال في كتابه ((تكنيك الشعر الإنجليزي **The Technique of English verse**)): النظم يمكن أن يوجد بدون معنى وأنه ما دام الوزن مستقلاً استقلالاً جوهرياً عن المعنى فإن لنا الحق في أن نحاول إعادة إنتاج البنية الوزنية لأي بيت بمعزل عن معناه كلية. ويقول صباحاً نظرية الأدب تعليقاً على رأي ستيوارت: ((..فإذا تجاهلنا المعنى عن مفهوم الكلمة والجملة، وتخلينا بالتالي عن إمكانية تحليل الفروق بين أشعار شعراء مختلفين، فالشعر الإنجليزي يتعين إلى حد كبير بالتناغم بين التعبير المسبوك، والدافع الإيقاعي، كما أن الإيقاع الفعلي للحديث مشروط بتقسيم العبارات ولا يمكن الوثوق بتقسيم العبارات إلا على أساس التآلف مع معنى النظم)).

كما يؤكد المؤلفان هذه الفكرة في نهاية الفصل الثالث عشر: إن الأوزان قد استعادت اليوم الالتماس الضروري لها من اللغويات، ومع علم الدلالات اللغوية في الأدب، ونحن نرى أن الصوت والوزن يجب أن يدرسا كعنصرين في مجمل العمل الفني، وليس بمعزل عن المعنى..(13).

وما يردده المحدثون من ضرورة عدم الفصل بين الصوت أو الألفاظ والدلالات قد نبه عليه النقاد العرب منذ مئات السنين، ومنذ أعلن الجاحظ أن المعاني كالأرواح، والألفاظ كالأجساد، ولا حياة لأحدهما بدون الآخر.

ويعترف اللغويون في النهاية أن الأدباء أقدر من غيرهم على ملاحظة الصلة بين الأصوات ومعانيها، وأن ما يدركونه من دلالات الأصوات غير واضح لغيرهم، ويعتبر اللغويون أنفسهم غير مسؤولين عن المعاني التي يضيفها الأدباء، أو يدركونها من وحي الأصوات.

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس: إن الشاعر ينتقي من الألفاظ، ويتخير ويفاضل بينها، ويميز بعضها على بعض متخذاً في نظمه البيت من الشعر لفظاً خاصاً يأبى غيره، لأن أصواته توحى إليه مالا توحى أصوات غيره.. وأن الاستعمال الأدبي للكلمة في شعر أو نثر يوثق على توالي الأيام بين الأصوات والمدلولات، ولا سيما في عبارات المشهورين من الأدباء التي قد تبلغ عند بعض

الشعوب حد التقديس، أما اللغوي فيأبى تقدير الظواهر اللغوية إلا في ضوء أسسه العلمية من بحث الأصوات والصيغ وتركيب الكلمات، ويرفض تقدير اللغات على أساس ما ظهر فيها من آثار أدبية (14).

ومجمل القول أننا لا نستطيع أن نفصل اللفظ عن المعنى، ولا نفضل أحدها على الآخر، ولا ندخل في جدل بلا جدوى، لأن الذهاب إلى تفضيل أحدها على الآخر لا فائدة منه في نظرنا، لأننا لا نستطيع أن نتصور لفظاً بدون معنى.

مواضيع

- 1 - ينظر: علم اللغة د/محمود السعران دار النهضة العربية بيروت ص400
- المدخل إلى علم الأصوات د/صلاح الدين صالح حسنين ط 1/ 1981 دار الاتحاد العربي للطباعة القاهرة.ص:22
- 2 - ينظر: اللسان والإنسان د/حسن ظاظا دار المعارف 1971م القاهرة- ص: 21
- من وظائف الصوت اللغوي د/أحمد كشك ط1 القاهرة 1983م ص12- 15
- 3 - الخصائص لابن جني، ت:محمد علي النجار ط2 بيروت، ج1/544
- 4 - ينظر:المصدر السابق، باب((في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)) ج1/544- 560
- 5 - ينظر:المصدر السابق، ج1/ 526- 527
- 6 - المصدر السابق، ج1/ 526-527
- 7 - المصدر السابق، ج1/530
- 8 - ينظر: المصدر السابق، ج1/537
- تطور الفعل الرباعي في العربية ولهجاتها مقارنة بأخواتها الساميات ((دراسة في التطور والتأصيل)) الشريف ميهوبي، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة - الجزائر 2002م، ص114- 146
- 9 - الخصائص لابن جني، ج1/ 540- 541
- 10 - دلالة الألفاظ، د/ إبراهيم أنيس ط3/ القاهرة 1972م، ص68- 69
- 11 - اللهجات العربية، د/ إبراهيم أنيس ط2/القاهرة 1952م، ص81
- 12 - علم اللغة د/محمود السعران ص116
- 13 - نظرية الأدب، رينيه ويليك، أوستن وارين، ت:محيي الدين صبحي ص 219
- 14 - من أسرار اللغة، د/ إبراهيم أنيس ط3/القاهرة 1966م، ص 149-150
- الأصوات اللغوية، د/ إبراهيم أنيس ط3/القاهرة 1961م، ص 40- 45